﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٥﴾ [الصّف: 5]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تسليةُ النَّبيِّ الكريمِ بما جَرَى للأنبياءِ السّابقين

لمّا ذكرَ النَّظم الكريمُ مقتَ الله تعالى للَّذين يقولونَ ما لا يفعلون، وكان مقتُ الله ذلك لِما فيه منَ الإيذاءِ لرسوله الكريم ﷺ؛ إذ وعَدوهُ بعدمِ الفِرار من الجهاد، والثَّباتِ معَهُ في أرضِ القتال، وأخلَفوا الوعد، وآذاهُ ذلك إيذاءً بالغًا؛ أرادَ المَولى تعالى تسليَةَ النَّبيِّ ﷺ بما وقعَ لموسى عليه السلام من إيذاءٍ، فصبرَ على فِسقهم، وأوكلَ الأمرَ إلى الله تعالى، ولذا قالَ أبو حيّان: "ولمّا كانَ في المُؤمنينَ مَن يَقولُ ما لا يَفْعَلُ، وهو راجِعٌ إلى الكَذِبِ؛ فَإنَّ ذَلِكَ في مَعْنَى الإذايَةِ لِلرَّسولِ ﷺ؛ إذ كانَ في أتْباعِه مَنْ عانَى الكَذِبَ، فَناسَبَ ذِكْرُ قِصَّةِ موسَى وقولِهِ لِقَومِهِ: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾"[1]، في حينِ رأى الطَّيبيُّ: "أنَّ الله تعالى لمّا وبَّخ المؤمنين الَّذين ما وفَوا بما عاهدوا، وأخلفوا المواعيدَ تمهيدًا وبساطًا، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾ حتّى يكونوا في اجتماعِ الكلمة كالبنيان المرصوصِ في القتال؛ حذَّرَهم ممّا لقي قومُ موسى من إزاغة القلوب، والحِرمانِ من التَّوفيقِ بسبب الأذى، وممّا ارتكب قومُ عيسى بعدَ مجيئه بالبيِّنات، من تكذيبِه وقولِهم فيه: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦﴾ [الصف: 6]، ألا ترى كيفَ جمعَ الكلَّ في قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ﴾، أي: قضيَّة الدَّعوة إلى الإسلام توقيرُ مَن يدعو إليه، وتوقيرُ حُرمته، وإجابةُ دعوته، والتَّفادي عن إخلاف المواعيد، وعمّا يُؤذيه من القول

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 165.

والفعل؟"[1]، وقيل: "لمّا ذكر سُبحانه أنَّه يحبُّ المقاتلينَ في سبيله؛ أرادَ أن يُبيّنَ أنَّ (موسى وعيسى) عليهما السلام أُمِرا بالتَّوحيد، وجاهدا في سبيلِ اللّه، وحلَّ العقابُ بمَن خالفَهما"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُؤْذُونَنِي﴾: أذيَ الشَّيءُ أذًى، من بابِ تَعِبَ[3]، ويُعدّى بالهمزةِ، فيقالُ: آذيتُهُ بالإيذاء، والأذيَّةُ اسمٌ منه، فتأذّى[4]، والأذى: ما يصلُ إلى الحيوانِ منَ الضَّررِ؛ إمّا في نفسِه أو جسمِه، أو تبعاتِه دنيويًّا كانَ أو أُخرويًّا، والأصلُ في هذه المادَّة هو ما يتكرَّهُ، وما لا يلائمُ، فالإيذاءُ إيصالُ ما يَكرَهُهُ، والتَّأذّي: الحالةُ الحاصلةُ من وصولِ المكروه واختيارِه، وكذلك الأذى مصدرًا كالتَّعَب[5]، والمرادُ به في الآيةِ: الإيذاءُ بالتَّكذيبِ، والاتِّهامُ لعيسى بالسِّحر، واتِّهام أُمِّه بالزّنى.

2) ﴿زَاغُوٓاْ﴾: أصلٌ يدلُّ على ميلِ الشَّيءِ، يقالُ: زاغَ يَزيغُ زَيغًا، وزاغتِ الشَّمس، وذلك إذا مالَتْ، وفاءَ الفيءُ، والزّيغُ: الميلُ عن الاستقامة، ورجلٌ زائغٌ، وقومٌ زاغةٌ وزائغونَ[6]، والمرادُ به في الآيةِ: الميلُ عن الحقِّ، والانحرافُ عن الهدفِ الصَّحيح، والضَّلالُ عنِ الدَّعوة النّافعة.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

واذكُرْ يا محمَّد ﷺ إذ قالَ موسى لِقَوْمِه: لِمَ توصِلونَ الأذى إليَّ، وأنتم تعلمونَ صِدقي فيما جئتُكُم به من الرِّسالة، وقضيَّةُ علمِكم بذلك توقيري وتعظيمي، لا أنْ تؤذوني، فَلَمّا مالوا عن الحقِّ؛ أمالَ

مِـــن شـــأنِ الرُّسُل التَّوقيرُ والتَّـعـظـيـم، دونَ الإيـــذاءِ والتَّجريم

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 385.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 250.
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (أذي).
(4) الخليل، العين: (أذي).
(5) المصطفويّ، التّحقيق في الكلمات القرآنيّة: 1/ 59.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زيغ).

اللّهُ قلوبَهم عن الهداية، وأسكَنَها الشَّكَّ والحيرةَ والخِذلان، واللّهُ لا يَهْدي مَن سَبَقَ في علمِه أنَّه فاسقٌ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواوِ في ﴿وَإِذْ﴾:

إيرادُ الكلام بصورةِ الاستقلال؛ ليكونَ أنفعَ للتَّذكيرِ والاستدلال

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الواو)، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على الاستئنافِ والابتداءِ للكلامِ بجَعْلِه مُستقلًّا عمّا قبلَهُ؛ للتَّركيزِ عليه وإعطائِه اهتمامًا واسِعًا؛ إذ كان الإخلافُ بالوعد مُؤذيًا للرَّسول ﷺ، فأرادَ بالاستئناف تذكيرَ النَّبيِّ ﷺ بما جرى للأنبياءِ السّابقين عليهم السلام من إيذاءٍ شديدٍ، فصبَروا على ما أوذوا، وعليك أيُّها النَّبيُّ الكريم الاقتداءَ بهم، فالاستئنافُ يُعطي اعتناءً بالدَّليلِ والحُجَّة، فهو: "مُستأنَفٌ مُقرِّرٌ لما قبلَه من شناعةِ تركِ القتال"[2]، في حين ذهب ابن عاشور إلى أنَّ (الواو)؛ لعطفِ القصَّة على القصَّة أو عطفِ الجُمَل، فقال: "يَجوزُ أن تَكونَ الجُملَةُ مُعترِضَةً استِئنافًا ابتِدائيًّا، انتُقِلَ به مِنَ النَّهْيِ عَن عَدَمِ الوفاءِ بِما وعَدوا اللّهَ عليْه إلَى التَّعْريضِ بِقَومٍ آذَوا النَّبيَّ ﷺ بِالقَوْلِ أو بِالعِصيانِ أو نَحْوِ ذَلِكَ، فَيَكونُ الكَلامُ موجَّهًا إلَى المُنافِقينَ، وعلى هَذا الوجْه فَهو اقتِضابٌ، نُقِلَ به الكَلامُ مِنَ الغَرَضِ الَّذي قَبْلَهُ لِتَمامِه إلَى هَذا الغَرَضِ، والواوُ على هَذا الوجْه عَطْفُ غَرَضٍ على غَرَضٍ، وهو المُسَمَّى بِعَطْفِ قِصَّةٍ على قِصَّةٍ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ مِن تَتِمَّةِ الكَلامِ الَّذي قَبْلَها، ضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا لِلمُسلِمينَ لِتَحْذيرِهِم مِن إتيانِ ما يُؤْذي رَسولَه ﷺ، ويَسوؤُه مِنَ الخُروجِ عَن جادَّةِ الكَمالِ الدّينيِّ، مِثْلِ عَدَمِ الوفاءِ بِوعدِهِم في الإتيانِ بِأحَبِّ الأعْمالِ إلى اللّه تعالى، وأشفَقَهُم مِن أن يَكونَ

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 8/ 108.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 250.

ذَلِكَ سَبَبًا لِلزَّيغِ والضَّلالِ، كَما حَدَثَ لِقَومِ موسَى؛ لَمّا آذَوهُ، والواوُ على هَذا الوجْه عَطْفُ تَحْذيرٍ"[1].

دلالةُ الظَّرفِ (إذ):

دروسُ الماضي عِبَرٌ للحاضِر والمُستقبل

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بـ (إذ) الظَّرفيَّة، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على تقييدِ المتعلَّق المحذوفِ - كـ (اذكر) مثلًا - بالزَّمن الماضي، فهو: "منصوبٌ على المفعوليَّةِ بمضمَرٍ خوطِب به ﷺ بطريقِ التَّلوين، أي: اذكُر لهؤلاء المؤمنينَ المتقاعدينَ عن القتال وقتَ قولِ موسى عليه السلام لبني إسرائيلَ حين ندبَهم إلى قتالِ الجبابرة بقولِه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة: 21]، فلم يَمتثلوا بأمرِه؛ إذ قالوا له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة: 22]، إلى قولِه: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: 24]، وأصرّوا على ذلك، وآذَوه عليه السلام كلَّ الأذيَّة"[2]، أو منصوبٌ بـ﴿قَالَ﴾، ولذا قال الزَّمخشريُّ: "أوْ: وحينَ قالَ لهم ما قالَ كانَ كذا وكذا"[3]، وأفادَ التَّقييدُ للذِّكرِ اللِّسانيِّ والقلبيِّ بالظَّرف الماضي أهمّيَّةَ نظرِ الدُّعاة فيما جَرى للسّابقين من مشاقَّ وآلامٍ في طريقِ التَّبليغ والإرشاد، فالرُّجوعُ للماضي من أجلِ الصَّبْرِ على آلامِ الحاضِر وإيذاءِ المُستقبل.

دلالةُ الفعلِ الماضي ﴿قَالَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

لغةُ الأنبياء الكِرام تتَّسِمُ بالرَّحمة والإفهام

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ الماضي، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ القولِ وصُدورِه منه؛ إذِ الماضي يدلُّ على القطعِ بالحصول، كما أفادتْ مادَّةُ القولِ اللُّغةَ اللَّيِّنة، والخطابَ الجميلَ، والحوارَ الممزوجَ بسَلامةِ النِّيَّةِ والمَقصد.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 178.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 251.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 524.

نُكْتَةُ التَّصريحِ باسمِ العلَم ﴿مُوسَىٰ﴾:

صرَّحَ النَّظمُ الكريم باسمِ أحدِ الرُّسُل والأنبياء، الَّذين تعرَّضوا للإيذاء، وهو ﴿مُوسَىٰ﴾ عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على تعرُّض هذا النَّبيِّ الكريم لنوعِ الإيذاءِ المذكور نفسِه في النَّظم، وهو الوعدُ له بالثَّباتِ معَهُ والصَّبرِ على ما يُلاقيه في دعوتِه، ثمَّ التَّخلّي عنه والفرارِ أمامَه؛ إذ قالوا له: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: 24]، وهذا القولُ إيذاءٌ شديدٌ، وتخلٍّ كبير، فصبرَ على ظُلمِهم حتَّى فرَّق اللهُ بينَهُ وبينَهُم، وفي ذلك وعيدٌ شديدٌ للمخاطَبين حتّى لا يجري عليهم ما جَرَى على السّابقين من تعذيبٍ وتعنيف.

إخلافُ الوُعود من الفِسْق والجُحود

معنى (اللّام) ودلالتُها في ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾:

استعملَ النَّظمُ الكريم (لام) الجرِّ، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّبليغِ للمقولِ وإيصالِه لهُم، وتفيدُ (اللّامُ) إيثارَ موسى عليه السلام قومَهُ بالقولِ؛ حُبًّا لهم ورَغبةً في نُصْحِهم وإرشادِهم، فالقولُ وُجِّهَ لهم ولأجلِهم، وانتهى إلى آذانِهم.

حرصُ الأنبياء على نُصح الصُّلحاءِ والأشقياء

دلالةُ الإضافةِ في ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾:

أضافَ النَّظمُ الكريم (القومَ) إلى ضميرِ (موسى) عليه السلام، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾؛ للدَّلالةِ على عُمق الارتباط بقومِه، وشديدِ محبَّتِه لهم، فهو يُذكِّرُهم بأنَّهم قومُهُ، وهو حريصٌ على هدايتِهم ونفعِهم، فاللّائقُ بهم التَّوقيرُ دونَ الإيذاءِ.

عمقُ الارتباط سببٌ للالتزام والانضباط

دلالةُ حرفِ النِّداءِ في ﴿يَٰقَوْمِ﴾:

عبَّر النَّظمُ الكريم بأسلوبِ النِّداء الواقعِ مقولَ القولِ، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ﴾؛ للدَّلالة على الاهتمامِ بالمخاطَبين، "والاستعطافِ لهم والاستنهاضِ إلى رضا ربِّهم"[1]،

نداءُ المُخاطَبين يدلُّ على الاهتمام بالمقولِ المتين

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 10.

و"أصلُه (يا قومي)، ولذا كُسِرت الميمُ، ولولا تقديرُ (الياء)؛ لقيل: (يا قومُ) بالضَّمِّ؛ لأنَّه يكون حينَئذٍ مفردًا معرفةً، وهو نداءُ رفقٍ وشفقةٍ، كما هو شأنُ الأنبياء ومَن يليهم"[1]؛ فيعمَدُ المُنادي إلى تنبيههم ولفتِ انتباهِهم إليه، حتّى يَلتفتوا إلى ما يطلبُهُ منهم بجُملة النِّداء، كما يشيرُ أسلوبُ النِّداء إلى أنَّ هذا الأمرَ الَّذي يُتحدَّثُ عنه جديرٌ بالاهتمام والإصغاء، واستعملَ حرفَ النِّداء (يا) التي للبعيد؛ إشارةً إلى أنَّهم كانوا بعيدينَ عنهُ في الإصغاء والقَبولِ معَ المُسارعة إلى التَّكذيبِ والإيذاءِ.

دلالةُ المُنادَى المُضاف (قومِ):

انتسابُ النَّبيِّ لقومِه مَدعاةٌ لتصديقِه ومُساعدَتِهِ

عبَّر النَّظمُ الكريم بالمُنادى مُضافًا إلى (ياء) المتكلِّم المحذوفةِ، في قولِه تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾؛ للدَّلالة على التَّذكيرِ بالحقوقِ الَّتي بينهم، فهم قومُهُ، ويَنتمي إليهم، واللّائق بهم الإذعانُ والإصغاءُ والعملُ بما يطلبُهُ منهم، فكيف إنْ كانوا يتعمَّدونَ إيذاءَهُ وإهانته، فهو توجيهٌ لما يَنبغي عليهم عملُه من كونِه منسوبًا لهم ومُرتبطًا بجماعتهم، ولذا قال ابن عاشور: "وابتِداءُ كَلام موسَى عليه السلام بِـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ تَعريضٌ بِأنَّ شَأْنَ قَوْمِ الرَّسولِ أن يُطيعوهُ، بَلَهَ ألّا يُؤْذوهُ، فَفي النِّداءِ بِوصْفِ (قَوْمِ) تمهيدٌ لِلإنكارِ، في قَولِهِ: ﴿لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾"[2].

معنى (اللّام) ودلالتُها في ﴿لِمَ﴾:

تعليلُ فعلِ الإيذاء كنايةٌ عن افتقادِهم السَّببَ بالإيماء

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بـ(لامِ الجرِّ) في قولِه تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾؛ للدَّلالة على التَّعليلِ، أي: لأجلِ أيِّ أمرٍ مهمٍّ تتركونَ مُساعدتي، وتقومونَ بإيذائي؟ وفي هذا التَّعليلِ للإيذاءِ دعوةٌ للتَّفكيرِ في الغرضِ من التَّكذيب والباعثِ على الإيذاء، وكأنَّه لا يجدُ لهم سببًا واضحًا لذلك الصَّنيع سِوى الظُّلم والفِسق والاستكبار.

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 251.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 178.

دلالةُ اسمِ الاستفهام (ما):

الإنـــكـــارُ بـالاسـتـفـهـام كنايةٌ عن جَهالةِ في الـعـقـولِ والأفهام

استعملَ النَّظمُ الكريم (ما) الاستفهاميَّةَ، في قولِه تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾؛ للدَّلالة على الاستفهام عن السَّبب الباعثِ للإيذاء، وأبهمَ المستفهَمَ عنه؛ للدَّلالةِ على تنزيلِ نفسِه المنكِرة عليهم، منزلةَ مَن لا يعلمُ السَّببَ الباعثَ على الإيذاء، فيكونُ الغرضُ من الاستفهام الإنكارَ لوجودِ سببٍ حقيقيٍّ وصحيحٍ يدفعُهم إلى الإيذاء، قال الطَّيبيُّ: فهو "إنكارٌ لمُطلَقِ الإيذاء، فيصحُّ حملُهُ على الإيذاءِ في الدّين وفي النَّفس"(1)، وإنَّما عبَّر عن الإنكار بالاستفهام لأجل ذلك التَّنزيل، الَّذي يجعلُ المنكِرَ له كالجاهلِ؛ بسببِ ذلك الأمرِ المنكَر؛ لغرابةِ صُدوره بلا سببٍ مُقنعٍ، فيكون أعمقَ في الإنكار، وأبلغَ في التحذير من تلك الخَصلةِ الشَّنيعةِ السَّيِّئة؛ إذ يلزمُ من الإنكارِ التَّحذيرُ كنايةً، ولذا قال ابنُ عاشور: "والاستِفهامُ لِلإنكارِ، أي: إنكارِ أن يَكونَ لِلإذايَةِ سَبَبٌ"(2).

سرُّ التَّعبير بالجملةِ الفعليَّة المُضارعيَّة ﴿تُؤۡذُونَنِي﴾:

اتِّـفـاقُـهـم على الإيـذاءِ المُستمرِّ جـحـودٌ قـويٌّ مُنهمِر

عبَّر النَّظم الكريم عن الحَدَثِ المستفهَم عن سرِّ صدوره بالفعلِ المضارعِ، في قولِه تعالى: ﴿لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك الحدث واقعٌ منهم على سبيلِ التَّجدُّدِ والاستمرار، فهم لا ينفكّونَ عن إيذائه نفسيًّا وكلاميًّا بسبب عدمِ صَبْرهم وسُرعةِ مُخالفتهم وعُنفِ خِطابهم، فالإيذاء هنا نفسيٌّ وشعوريٌّ، وأسندَ الإيذاء إلى القوم جميعًا؛ للدَّلالة على توافُقِهم واتِّفاقِ كلمتِهم على ذلك، كما شخَّصَ نفسَه بـ(ياء) المتكلِّم بيانًا لانفرادِه بالإيذاء؛ وتصويرًا لشدَّةِ حالتِه، فيكون ذلك التَّشخيصُ أكثرَ تسليَةً للنَّبيِّ ﷺ، قال ابن كثير: "وفي هَذا تَسليَةٌ لِرَسولِ اللّه ﷺ، فيما أصابَه مِنَ الكُفّارِ مِن قَومِه وغَيرِهِم، وأمرٌ لَهُ بِالصَّبرِ"(3).

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 384.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 178.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 109.

معنى (الواو) ودلالتُها في ﴿وَقَد﴾:

تقييدُ الإنكار بالحال يفيدُ التَّعجُّبَ من سوءِ الفِعال

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الواو)، في قولِه تعالى: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على الحال، فهي: "جملةٌ حاليَّةٌ مؤكِّدةٌ لإنكارِ الأذيَّة ونفيِ سَبَبِها"[1]، أي: لِمَ يصدُرُ منكم الإيذاءُ، وأنتم عندَكم علْمٌ بأنّي رسولُ الله إليكم، فيكونُ الإنكارُ والتَّحذيرُ المفهومانِ من الاستفهام مَصحوبَين بتَعجُّبٍ أيضًا دلَّتْ عليه (الواوُ) الحاليَّةُ التَّقييديَّةُ، قال الإمام الواحديُّ: أنكرَ "عليهم إيذاءَهُ بعدما علِموا أنَّه رسول الله، ورسولُ الله يُحترَمُ، ويُعظَّمُ، ولا يُؤذى"[2]، فـ (الواوُ) تفيدُ البرهنةَ والتَّعليلَ للنَّفي، وتكونُ بمنزلة سندِ المنعِ الَّذي يوردُهُ المُحاجِجُ لتقويةِ إنكارِه ومَنعِه، فالجملةُ: "في مَوضِعِ الحال، أي: تُؤذونني عالمينَ علْمًا يقينًا ﴿أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾، وقضيَّةُ علْمِكم بذلك وموجِبه تعظيميٌّ وتوقيريٌّ، لا أنْ تُؤذوني، وتَستهينوا بي؛ لأنَّ مَن عرَفَ الله وعظَمتَه؛ عظَّمَ رسولَه، علْمًا بأنَّ تعظيمَه في تعظيمِ رسولِه، ولأنَّ مَن آذاه؛ كانَ وعيدُ الله لاحقًا به"[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالحرفِ (قد):

مخالفةُ التَّوقُّعِ يدلُّ على سوءِ الطَّبع والتَّطبُّع

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بحرفِ التَّحقيقِ (قد)، في قولِه تعالى: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة إمّا على التَّحقيقِ و"التَّوكيد، كأنَّه قالَ: وتعلمونَ علمًا يقينًا لا شُبهةَ لكم فيه"[4]، أي: معَ علْمكم المُحقَّقِ بصِدقي وصحَّةِ كلامي، فالإيذاءُ المتعدِّدُ المتجدِّدُ قد رافقَهُ علمٌ مُحقَّقٌ بما ينافيه، وما يُقْدِمُ على ذلك إلّا أحمقُ غافلٌ، قال الهرريُّ: "﴿وَقَد﴾ لتحقيقِ العِلْم، لا للتَّوقُّع، ولا للتَّقريبِ ولا للتَّقليل، فإنَّهم قالوا: إنَّ (قد) إذا دخلتْ على الحال؛ تكونُ للتَّحقيق، وإذا دخلتْ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 252.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 434.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 524.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 524.

على الاستقبال؛ تكونُ للتَّقليل"[1]، وإمّا للدَّلالة على التَّوقُّع، فيكونُ إنكارُهُ لإيذائِهم المتجدِّد مُقترِنًا بتوقُّعِه المتكرّرِ، وعلْمِه بأنَّهم يَعلمونَ رُسوليَّتَهُ علْمًا مُستمِرًّا، فيكون صدورُ إيذائِهم مخالفًا لما يتوقَّعُهُ هو منهم من فعلٍ مُنافٍ لذلك ومُناقضٍ له، ويُفيدُ ذلك التَّحذيرَ الشَّديدَ من خَصلة المُخالفة وخُلْفِ الوعدِ للأنبياء والرُّسُل؛ لأنَّ ذلك مُؤذٍّ لإنكارِ ما علِموهُ من صِدق الرِّسالة وصحَّةِ النُّبوَّة.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارع ﴿تَّعْلَمُونَ﴾:

الجمعُ بين التَّصديق والإيذاء يدلُّ على عِظَمِ الدّاء

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ المضارِع، في قولِه تعالى: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ لعلْمِهم وتصديقِهم، فـ"صيغةُ المضارع للدَّلالةِ على استمرارِ العلْم، أي: كيفَ تُؤذونني؟ والحالُ أنَّكم تعلمونَ علْمًا قطعيًّا مُستمِرًّا بمُشاهدة ما ظهرَ بيدَيَّ من المعجزات أنّي مرسَلٌ من الله إليكم، ومن قضيَّة علمِكم بذلك أنْ تُبالغوا في تعظيمي، وتُسارِعوا إلى طاعتي، فإنَّ تعظيمي تعظيمٌ لله، وإطاعتي إطاعةٌ له، ولذا قال ابنُ عاشور: "والإتيانُ بَعدَ (قَد) بالمُضارِع هُنا؛ للدَّلالَة على أنَّ علمَهُم بذَلِكَ مُجَدَّدٌ بتَجَدُّدِ الآياتِ والوحي، وذَلِكَ أجدَى بدَوامِ امتثالِه؛ لأنَّهُ لَو جيءَ بفعْلِ المضيِّ؛ لَما دَلَّ على أكثَرِ من حُصولِ ذَلِكَ العلمِ فيما مَضَى، ولَعَلَّهُ قَد طَرَأ عليه ما يُبطِلُهُ"[2]، وفيه تسليَةٌ للنَّبيِّ ﷺ بأَنَّ الأذيَّةَ قد كانت من الأُمم السّالفة أيضًا لأنبيائهم، والبلاءُ إذا عمَّ؛ خَفَّ"[3]، فيكونُ إنكارُهُ لإيذائهم في حالةِ تجدُّدِ علمِهم برُسوليَّتِه، وذلك يحملُ طابَعَ التَّكذيب والإنكارِ لصِدقِه في دَعوى النُّبوَّة، فيتناقَضُ علمُهم وتصديقُهم برسالتِه معَ سوءِ فعلِهم الدّالِّ على إنكارِهم، فيكونُ في الكلام إلزامٌ لهم بالجمعِ بينَ النَّقيضين، في حين ذهبَ أبو حيّان إلى أنَّ المضارعَ: "هُنا مَعناهُ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 252.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 179.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 252.

المُضيُّ، أي: وقَد عَلِمتُم، كَقَولِهِ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النّور: 64]، أي: قَد عُلِمَ، ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ﴾ [البقرة: 144]، وعُبِّرَ عَنهُ بِالمُضارِعِ؛ ليَدُلَّ على استِصحابِ الفِعلِ"[1].

دلالةُ حرفِ التَّوكيد في ﴿أَنِّي﴾:

تحقيقُ النِّسبة الكلاميَّةِ مفيدٌ تحقيقَ النِّسبةِ الذِّهنيَّة

علَّقَ النَّظمُ الكريمُ العلْمَ الواردَ في قولِه تعالى: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾، بالمصدرِ المُؤوَّلِ من الجملةِ المصدَّرةِ بأداةِ التَّوكيد (أنَّ)؛ للدَّلالةِ على تحقيقِ تلك النِّسبةِ المُعتقَدةِ، وتوكيدِ ذلك الحُكمِ المُصدَّقِ به، فيفيدُ أنَّ علمَهم بتلك النِّسبة الذِّهنيَّةِ المُحقَّقة عِلمٌ مقطوعٌ به، والعلمُ بالمحقَّقِ يُفيدُ أنَّه عِلمٌ محقَّقٌ أيضًا، فيكون هنالك جزمٌ علميٌّ بصدقِ رسوليَّتِه، ومع ذلك يصدرُ منهم الإيذاءُ لنبيِّهم! قال ابن عاشور: "وكَما أُكِّدَ عِلمُهُم بِـ (قَد)؛ أُكِّدَ حُصولُ المَعْلوم بِـ (أنَّ) المَفْتوحَة، فَحَصَلَ تَأْكيدانِ للرِّسالَة، والمَعْنَى: فَكَيفَ لا يَجري أمرُكُم على وفْقِ هَذا العِلْم"[2]، وأورد النَّظمُ الكريمُ اسمَ (أنَّ) ضميرًا للمتكلِّم؛ للدَّلالة على الذّاتِ الَّتي وقعَ عليها الإيذاء، فاتِّحاد ضميرَي المتكلِّم في ﴿تُؤْذُونَنِي﴾ و﴿أَنِّي﴾ دالٌّ على أنَّ تلك الذّات قد وقعَ عليها الإيذاء، فهي في الضَّمير الثاني مأخوذةٌ بقيدِ وقوعِ الإيذاء عليها، حتّى يكونَ الإخبارُ عنها بالخبرِ محطَّ التَّعجيب.

نُكْتَةُ الإخبارِ بـ ﴿رَسُولُ﴾:

تكريمُ مَن وقعَ عليه الإيذاء بيانٌ كاشِفٌ عن عظيمِ البَلاء

أخبرَ النَّظمُ الكريمُ عن اسم (أنَّ) بعنوان ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الذّات الَّتي وقعَ عليها الإيذاء هي ذاتٌ عظيمةٌ وشريفة، ولا تثبُتُ الرَّسوليَّةُ إلّا بالبراهين العقليَّة والمُعجزات الخارقةِ للعادة، فيكونُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 165.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 179.

صدورُ الإيذاء المقيَّدِ بالعِلْمِ بصِدقِه وصحَّةِ رسوليَّتِه عملًا فظيعًا وذنْبًا كبيرًا وجريرةً مَقيتةً.

نُكتةُ التَّعبيرِ بوصف ﴿رَسُولُ﴾:

الـلّائـق بمقام الرَّسول التَّوقيرُ والتَّعظيمُ

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ (الرَّسول)، في قولِه تعالى: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾، بدلًا من (نبيِّ الله)؛ لما في لفظ (الرَّسول) من خصوصيَّةٍ على لفظِ (النَّبيِّ)، ولإيحائِه بوجوبِ الالتزامِ بشريعته بدلًا من إيذائِهِ؛ إذِ الرَّسولُ نبيٌّ له شريعةٌ وكتاب، كما أنَّ لفظَ (الرَّسول) يدلُّ على أنَّه مُرسَلٌ من الله إليهم، واللّائق بهم الاحتفاءُ به والتَّوقيرُ لهُ، بدلًا من الإيذاءِ والعِصيان، قال ابنُ كثير: "وفيه نَهيٌ لِلمُؤمِنينَ أن يَنالوا مِنَ النَّبيِّ ﷺ، أو يوصِّلوا إلَيه أذًى"[1].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾:

تحديدُ مصدرِ الرِّسالة يَقتضي الإيمانَ والطّاعة

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظ (الرَّسول) إلى الله تعالى، في قولِه: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾؛ للدَّلالة على التَّعيين والتَّعريف[2]، وفيها أيضًا التَّشريفُ والتَّكريم، بل في الإضافةِ دليلٌ على وجوبِ الطّاعة؛ إذ كونُه رسولًا من الله يوجِبُ طاعتَهُ ومحبَّتَه وإكرامَهُ، بدلًا من إيذائِه وعدمِ طاعتِه، فهذه "الآيةُ تدلُّ على عِظَمِ إيذاءِ الرَّسول، حتّى إنَّه يُؤدّي إلى الكفر، وزيغِ القلوبِ عن الهدى"[3].

إيثارُ الاسم الجليلِ مُضافًا إليه:

الاسـمُ الجليل عِـلَّـةٌ لـلإنـكـارِ والتَّحذير

آثرَ النَّظمُ الكريم إضافةَ لفظِ (الرَّسول) إلى الاسمِ الجليل، في قولِه تعالى: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾؛ للدَّلالة على تعليلِ إنكارِه وتحذيرِه لهم من إيذائِه؛ إذِ الاسمُ الجليل بكلِّ ما يُنبئُ عنه من صفاتِ الجَلال والكَمال قد اختارَهُ رَسولًا إليهم، فكيفَ يتأتَّى

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 109.
(2) ابن يعيش، شرح المفصّل: 2/ 126.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 19/ 52.

منهم الإيذاء؟ قال البقاعيُّ: "أي: رسول المَلِكِ الأعظم، الذي لا كفوءَ له، ورسولُهُ أيضًا يُعظَّمُ، ويُحترَمُ، لا أنَّه تُنتهَكُ جلالتُهُ، وتُختَرَم"[1].

دلالةُ حرفِ الجرِّ (إلى):

انتهاءُ الرِّسالة للمخاطَبين إلزامٌ لهم بالكونِ معَ المؤمنين

استعملَ النَّظمُ الكريم حرفَ الجرِّ (إلى)، في قولِه تعالى: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾؛ للدَّلالةِ على انتهاءِ الغاية، فصارَ المخاطَبونَ غايةً للإرسال ونهايةً له، ويلزمُ من كونهم غايةً مبادلةُ ذلك الإكرام الإلهيِّ بالعمل والطّاعة والاستقامة، بدلًا من الإيذاءِ والعِصيان.

معنى (الفاء) ودلالتُها في ﴿فَلَمَّا﴾:

بدلًا من الخضوع والانصياع لجؤوا إلى الزَّيغِ والضَّياع

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الفاء)، في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾؛ للدَّلالة على التَّعقيب والتَّفريع والتَّسبُّب، قال البقاعيُّ: "ولمّا تحنَّنَ إليهم، واستعطفَهُم، وذكَّرهم ما يعلمونَ من رسليَّتِه وصِلتِه باللّه، بما شاهدوا من الآياتِ الَّتي هي أعظمُ الإحسانِ إليهم؛ أُعلِمَ أنَّهم أوشكوا العِصيانَ، فقال مُعبِّرًا عن ذلك بـ(الفاء)؛ تسبيبًا عن هذا القول الَّذي هو أهلٌ لأن يُسبِّبَ الثَّباتَ، وتعقيبًا وتقريبًا"[2]، والغرضُ منه: بيانُ عدمِ الانصياع للإنكارِ والتَّحذيرِ السّابقَين؛ إذ صُدورُ الإيذاءِ منهم بعدَ علمِهم برسوليَّتِه إليهم منكَرٌ ومُستهجَنٌ، لكنَّهم بدلًا منَ الانخراط في الطّاعة صدرَ منهم الزَّيغُ والضَّلال عن المنهجِ المُستقيم.

معنى (لمّا) ودلالتُها:

تعليقُ الإضلالِ بالرَّغبة البشريَّة في الضَّلال

استعملَ النَّظمُ الكريمُ (لمّا)، في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾؛ للدَّلالة على تعليقِ حصولِ مضمونِ الجوابِ بحُصول

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 11.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 11.

مضمونِ الشَّرط[1]؛ إذ (لمّا) حرفُ شرطٍ غيرُ جازمٍ، يدلُّ على الظَّرفيَّة والحين، وفي ربطِ إزاغةِ الله لقلوبِهم بزيغهم في ظرفٍ مبهَم دليلٌ على أنَّهم اختاروا طريقَ الضَّلال والانحرافِ، عندما أحسّوا بأنَّ الأوامرَ الإلهيَّةَ بدأتْ تُتعبُهم.

دلالةُ المجازِ المرسَل أوِ الاستعارةِ في ﴿زَاغُوٓاْ﴾:

المـيـــلُ عـن الحقيقة خروجٌ عـــلى حُـســنِ الطَّريقة

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ عن المُخالفة لأمرِ الله ورسولِه بالزَّيغ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ على سبيلِ المجازِ المُرسَل؛ إذ أصلُ الزَّيغِ الميلُ عن الحقِّ والانحرافُ عنه، وأُريدَ به لازمُهُ، وهو المخالفةُ للأوامر، قال الإمام الواحديُّ: "والمعنى: أنَّهم لمّا تركوا الحقَّ بإيذاءِ نبيِّهم؛ أمالَ اللهُ قلوبَهم، وأظلَّهم، وصَرَفَهم عن الدّين؛ جزاءً لما ارتكبوا"[2]، والغرضُ من التَّجوُّزِ بيانُ سببِ المخالفة والباعثِ عليها، وهو الميلُ والانصرافُ؛ استكبارًا وعدمَ رِضًا عن تلك الأوامر، ويحتملُ أن يكونَ النَّظمُ الكريم قد استعارَ الزَّيغَ للضَّلال استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً؛ إذ شبَّهَ الضَّلالَ المعنويَّ عن الحقِّ بالزَّيغ الَّذي هو ميلٌ بالأبدانِ؛ تشخيصًا له وتجسيمًا، والتَّعبير عن زيغِ قلوبِهم بالفعلِ الماضي اللّازم؛ للدَّلالة على تحقُّقِ حصولِ الزَّيغ لهم، وتمكُّنِه في قلوبهم، فلا يَستطيعونَ الانفكاكَ عنهُ، ولذا قال الهرريُّ: "أصرّوا على الزَّيغ والميلِ عن الحقِّ الَّذي جاءَ به موسى، واستمرّوا عليه"[3].

دلالةُ الإسنادِ المجازيِّ في ﴿زَاغُوٓاْ﴾:

شـــدَّةُ الـزَّيـغ والـضَّـلال تـدلُّ على سوءِ النّيَّةِ والأحوال

أسندَ النَّظمُ الكريم الزَّيغَ إلى ضميرِ (الواو)، في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾، مع أنَّ الزّائغةَ والمائلةَ عن الحقِّ هي القلوبُ، فحوِّلَ الإسنادُ من القلوبِ إلى ذواتهم؛ لعلاقةِ السَّببيَّة؛

(1) ابن هشام، شرح قطر النّدى، ص: 43.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 434.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 252.

فيكونُ المراد من المجاز الإسناديِّ المبالغةَ في إظهارِ زَيغِهم، حتَّى إنَّهم بذواتِهم اختاروا الزَّيغَ، وحذفَ النَّظمُ الكريمُ متعلَّقَ الزَّيغ؛ لإرادةِ العُموم؛ إذ يذهبُ الذِّهنُ كلَّ مَذهَبٍ في تقديره، فقد زاغوا عن الحقِّ وطريقِ الخير والصَّواب.

دلالةُ التَّعديَةِ بالهمزة ﴿أَزَاغَ﴾:

الجزاءُ مِن جنسِ العملِ نتيجةٌ لكثرةِ الزَّلل

عدّى النَّظمُ القرآنيُّ الفعلَ ﴿أَزَاغَ﴾ بالهمزةِ، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾؛ للدَّلالةِ على الجَعْل والتَّصيير مع المُسارعةِ في الإزاغةِ، أي: صيَّرَ اللهُ قلوبَهم زائغةً؛ فلا يستطيعونَ رُؤيةَ الحقِّ، ولا العودةَ إليه، واختارَ النَّظمُ المادَّةَ الفعليَّةَ نفسَها؛ ليكون الجزاءُ من جنس العمَل؛ إذ خلقَ الله الزَّيغَ في قلوبِهم بعدَ إرادتِهم له وسَعيِهم في تَحصيلِه، قال البقاعيُّ: "فأسندَ الذَّنْبَ إليهم، والعقوبةَ إليه، وإن كان الكلُّ فعلَهُ؛ تعليمًا لعبادِه الأدبَ"[1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالاسم الجليلِ فاعِلًا:

كما يخلُقُ اللهُ الهدايةَ يفعَلُ الإزاغةَ

صرَّحَ النَّظمُ الكريم بفاعلِ الإزاغةِ، في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ فعلَهم للزَّيغ كَلا فعلٍ؛ إذ الفاعلُ الحقيقيُّ هو الله تعالى، فكانَ إظهارُ الفاعل يدلُّ على فاعليَّةٍ أشدَّ من فاعليَّتهم، فقد زاغَتْ قلوبُهم، ومالتْ عن الحقِّ، فخلقَ اللهُ الزَّيغَ والمَيَلانَ فيها؛ حتّى لا يَجدوا منها فِكاكًا، وفي إظهارِ الاسم الجليل فائدةٌ بيانيَّةٌ؛ إذ قد عَلِموا أنَّ موسى ﷺ رسولُ الله، لكنَّهم جَهِلوا فعلَ الله فيهم؛ إن خالفوا أمرَ رسولِه، فكان الإظهارُ للاسم الجليلِ في محلِّ الإضمار؛ ردًّا عليهم بإنكارهم رسولَهُ.

دلالةُ تعليقِ الإزاغةِ بالقُلوب:

إزاغةُ القلوبِ بصَرْفِها عن عَلّام الغُيوب

علَّقَ النَّظمُ الكريم فعلَ (الإزاغة) بالقلوبِ، في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾؛ للدَّلالةِ على محلِّ الزَّيغ الحقيقيِّ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 11.

وهي القلوبُ، التي إنِ انحرفَتْ عن الحقِّ؛ لَزِمَ انحرافُ أصحابِها عنه بالكلّيَّةِ، ولمّا كان القلبُ مَحَلًّا للاعتقاداتِ الحَقَّة والزّائغةِ، يكونُ المعنى: صرفَ اللّهُ القلوبَ عن الاعتقاداتِ الحَقَّة، وأمالَها إلى الاعتقاداتِ الزّائغةِ، ووجَّهَها إليه خذلانًا لهم، وفي دلالة (القلوب) على التَّقلُّب تعليلٌ لزيغِهم، بعدم ثباتِ تلك القلوبِ.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿قُلُوبَهُمْ﴾:

تعيينُ القلوبِ الزّائغة قرينةٌ للمجازِ قاطِعة

أضافَ النَّظمُ الكريم القلوبَ إلى ضميرِ الزّائغةِ قلوبُهم، في قولِه تعالى: ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على تعيينِ تلك القلوبِ الزّائغة بأنَّها قلوبُ مَن اختارَ الزَّيغَ والميلَ عن الحقِّ، والمخالفةَ لأمرِ موسى عليه السلام، ويكونُ التَّصريحُ بقلوبِهم قرينةً على المجازِ في قوله: ﴿زَاغُوٓاْ﴾، أي: زاغَتْ قلوبُهم، وفي جمعِ القلوب وإضافتِها إلى ضمير الجمع دلالةٌ على الاستغراقِ التَّوزيعيِّ، فلم يترك قلبًا من تلك القلوبِ إلّا أزاغَهُ وأمالَهُ، قال البقاعيُّ: "وجمعُ الكَثرة يدلُّ على أنَّه لم يثبُتْ منهم إلّا القليلُ"(1).

دلالةُ (الواو) في ﴿وَٱللَّهُ﴾:

تأكيدُ الإزاغةِ بعدمِ خَلْقِ اللهِ الهِداية

استعملَ النَّظمُ الكريم (الواو)، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾؛ للدَّلالةِ إمّا على العطفِ المُؤكِّد لمضمونِ قوله: ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾؛ إذ عطفَ النَّفي على الإثباتِ توكيدًا؛ لأنَّ اللّه تعالى إنْ كان قد فعلَ الإزاغةَ في قلوبِهم؛ فاللّهُ لا يهديهم، قال الهرريُّ: "أكَّدَ إزاغتَهُ لقلوبِهم، وبيَّنَ علَّتَها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، فهذه الجملةُ مقرِّرةٌ لمضمونِ ما قبلَها من الإزاغةِ، وتذييلٌ مُؤْذِنٌ بعلّيَّتِه"(2)، أو للدَّلالة على الاستئناف؛ بيانًا لكونِ اللّه تعالى لا يخلقُ الهدايةَ في قلوبِ الفاسقين، أو للدَّلالةِ على الاعتراض، فهو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 11.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 253.

"اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَهُ من الإزاغةِ، ومُؤذِنٌ بعِلَّتِهِ، أي: لا يهدي القومَ الخارجينَ عن الطّاعةِ ومنهاجِ الحقِّ، المُصرّين على الغَوايةِ"[1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالمُسنَدِ إليه مُقدَّمًا:

سلبُ الرَّشاد مختصٌّ بربِّ العِباد

قدَّمَ النَّظمُ الكريم المسندَ إليه ﴿وَٱللَّهُ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على الحصرِ والاختصاصِ لعَدَمِ الهدايةِ باللّه تعالى، فكما أنَّ الهدايةَ والإيصالَ إلى الحقِّ مُنحصِرةٌ باللّه تعالى، فإنَّ عدمَها مُنحصِرةٌ به تعالى، كما يدلُّ التَّقديمُ على التَّأكيدِ؛ إذ تحقَّقَ الإسنادُ إلى اللّه تعالى مرَّتينِ؛ تارةً بجملةِ الخبر، وتارةً أُخرى بالفعل.

دلالةُ النَّفي بـ ﴿لَا﴾:

الانتفاءُ المُعلَّل يدلُّ على الزَّمنِ الأشمَل

استعملَ النَّظمُ الكريم ﴿لَا﴾ النّافيةَ، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾؛ للدَّلالة على انتفاءِ الهداية عنهم في الزَّمنِ الحاليِّ والاستقباليِّ، كما يُفيدُ عدمَ خَلْقِ الهداية لهم في الماضي أيضًا؛ إذِ النَّفيُ المعلَّلُ بالفِسْق يدلُّ على أنَّ ذلك سنَّتُهُ وطريقتُهُ تعالى معَ خَلْقِه الفاسقينَ، لا يختلفُ باختلافِ الزَّمان.

دلالةُ الفعلِ المُضارع ﴿يَهۡدِي﴾:

تجدُّدُ عدمِ الهداية جزاءً للقلوبِ ذاتِ الغوايَة

عبَّر النَّظمُ الكريم بالفعلِ المُضارع ﴿يَهۡدِي﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على عدمِ إيصالِ الهداية إلى قلوبِ الفاسقين؛ لفسقِهم على سبيلِ التَّجدُّدِ والاستمرارِ، قال الإمام الواحديُّ: "وفي هذا تنبيهٌ على عظَمِ إيذاءِ الرَّسول، حتّى إنَّه يُؤدّي إلى الكفر، ويُزيغُ القلبَ عنِ الهُدى"[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 243.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 434.

دلالةُ التَّعريفِ للفظ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾:

جميعُ أفرادِ القومِ الفاسقين مَسلوبةٌ عنهُم الهدايةُ للدّين القويم

عرَّفَ النَّظم الكريمُ لفظَ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾؛ للدَّلالة إمّا على العَهد؛ "فالمرادُ بهم إمّا المذكورونَ خاصَّةً، والإظهارُ في موقعِ الإضمارِ؛ لذَمِّهم بالفسقِ وتعليلِ عدمِ الهدايةِ به"[1]، أو للدَّلالة على جنسِ "الفاسقينَ، وهم داخلونَ في حُكمِه دُخولًا أوَّليًّا"[2]، ويفيدُ أنَّ اللّه تعالى لا يخلقُ الهدايةَ في جميعِ الأزمنة لجميعِ الأفراد الدّاخلة تحتَ اسمِ (القوم)، ويحتملُ أن تكونَ (اللّام) فيه للعهدِ الذِّكريِّ النّاظرِ لقولِه قبلُ: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ﴾.

دلالةُ الوصفِ ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾:

دلالةُ الوصفِ على التَّعليلِ مُنبئةٌ عن حِكمةِ الجَليل

استعملَ النَّظمُ الكريم وصفَ ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾؛ للدَّلالة على علَّةِ انتفاءِ الهداية عن القوم؛ إذ تعليقُ الحُكمِ بالمشتقِّ يدلُّ على عِلّيَّة المَأخَذ فيه، فيكونُ عدمُ الهداية والإيصال إلى الحقِّ بسببِ فِسقهم، وعلَّل ابنُ عاشور التَّوصيف بقوله: "وذُكِرَ وصْفُ ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ جاريًا على لَفْظِ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾؛ لِلإيماءِ إلَى الفُسوقِ الَّذي دَخَلَ في مُقَوِّماتِ قَوميَّتِهم، فالمَعنَى: الَّذينَ كانَ الفُسوقُ عَنِ الحَقِّ سَجيَّةً لَهُم، لا يَلطُفُ اللّهُ بِهِم، ولا يَعتَني بِهِم عِنايَةً خاصَّةً تَسوقُهُم إلَى الهُدَى، وإنَّما هو طَوعُ الأسباب والمناسبات"[3].

ويحتملُ الوصفُ أن يكونَ اسمَ فاعلٍ، أو صفةً مشبَّهةً، وهي الأرجحُ لدلالتها على الثُّبوت والدَّوام، قال البقاعيُّ: "أي: العريقينَ في الفِسق، الذين لهم قوَّةُ المحاولةِ، فلم يَحملْهم على الفِسق ضَعفٌ"[4]، فيكون دوامُ فسقِهم عِلَّةً صالحةً لسلبِ الهدايةِ عنهم، ورأى بعضُهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 243.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 243.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 179.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 12.

أنَّ ذلك الوصفَ مجازٌ مرسَلٌ عن الإرادةِ، وأنَّ التَّقدير: "لا يهدي مَن يريدُ الفسقَ، وهو من بابِ ذِكْرِ الفعل وإرادةِ الإرادة، قلت: هذا التَّقديرُ غيرُ مُفتقَر إليه؛ لأنَّ هذه الفاصلةَ تذييلٌ للآية، وكالتَّعليل لقوله: ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾"[1].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾:

كـلُّ المتَّصفينَ بالفُسوق عن الحقِّ مُروق

عرَّفَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ للدَّلالة على الاستغراق، أي: لا يهدي اللهُ كلَّ فردٍ من أفرادِ هذا الوصفِ العنوانيِّ، ويحتملُ أن تكونَ (أل) موصولًا اسميًّا؛ للدَّلالة على عِلَّةِ عدمِ الهداية، والتَّقديرُ: (الذين فسقوا).

حذفُ مفعولِ الهدايةِ المُطْلَق:

مَـن لـم يَصِـل لـنـورِ الإسـلام؛ لـن يـدخـلَ دارَ السَّلام

حذفَ النَّظمُ الكريمُ مفعولَ فعلِ الهدايةِ، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، وقدَّرَهُ البيضاويُّ بالمفعولِ المُطلَقِ المُبيِّن للنَّوع مع متعلِّقه، وهو "هداية موصلة إلى معرفةِ الحقِّ أو إلى الجنَّة"[2]، والهدايةُ الأولى تستلزمُ الثَّانية، فإنَّ مَن لم يصلْ لمعرفةِ الحقِّ، فإنَّه لن يَصِلَ إلى الجنَّة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الزَّيغُ والضَّلال:

الزَّيغُ الميلُ عن الحقِّ، والضَّلالُ الضَّياعُ للحقِّ

يُعَدُّ الزَّيغُ مَيلانًا عن الحقِّ، وانصرافًا عنه إلى الباطل، بحيثُ يكونُ الحقُّ أمامَهُم، فيَنحرفونَ عنه بأبصارِهم وقُلوبهم، وأمّا الضَّلالُ؛ فهو ضياعٌ للحقِّ نتيجةَ الإهمالِ لهُ والزَّيغِ عنه، فيقال: رجلٌ ضالٌّ؛ لأنَّه تاهَ عن الطَّريقِ الموصِل إلى المطلوب، ومن ثمَّ يكونُ الزَّيغُ فعلًا سابقًا، ومُسبِّبًا للضَّلال، ومُقدِّمةً للوصولِ إليه، حتّى إذ ما استمرَّ على الانحراف؛ تاهَ، وضاعَ الحقُّ أمامَه؛ فكان ضالًّا.

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 385.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 208.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والستون،
سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 61 ، 814 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-645-72-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 61 : المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-645-72-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6860354 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"